

فورين أفيرز: لماذا غزة مهمة؟



نشرت مجلة فورين أفيرز مقالاً للكاتب جان بيير فيليو يسلط الضوء على الأهمية التي تُشكلها غزة في المنطقة بأسرها منذ العصور القديمة.

يلفت الكاتب في مستهل مقاله إلى أنه وبعد ما يقرب من ثلاثة أشهر من الحرب التي شنتها إسرائيل على غزة، هناك أمر واحد لا جدال فيه: ألا وهو أن المنطقة المعزولة لفترة طويلة عادت إلى مركز الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وعلى مدار القسم الأعظم من العقدين الماضيين، عندما فرضت إسرائيل حصاراً جويًا وبحريًا وبريًا على غزة، بدا وكأن الزعماء والهيئات الدولية تفترض أن هذا القطاع المكتظ الذي يسكنه 2.3 مليون فلسطيني من الممكن استبعاده إلى أجل غير مسمى من المعادلة الإقليمية.

لقد فاجأ الهجوم الذي شنته حماس في السابع من أكتوبر إسرائيل وقسم كبير من العالم على حين غرة، وكشف عن العيوب الهائلة في هذا الافتراض. والحقيقة أن الحرب الآن أعادت ضبط القضية الفلسطينية برمتها، ووضعت غزة وشعبها في مركز أي مفاوضات إسرائيلية فلسطينية في المستقبل.

قيمة استراتيجية منذ القدم

لكن البروز الجديد المفاجئ لغزة لا ينبغي أن يشكل مفاجأة. وعلى الرغم من أن القليل مما نتذكره اليوم، فإن تاريخ المنطقة الذي يمتد لأربعة آلاف عام يوضح أن السنوات الستة عشر الماضية كانت حالة شاذة؛ لقد لعب قطاع غزة دائماً دوراً محورياً في الديناميكيات السياسية في المنطقة، فضلاً عن صراعاته القديمة حول الدين والقوة العسكرية. ومنذ فترة الانتداب البريطاني في أوائل القرن العشرين، كانت المنطقة أيضاً في قلب القومية الفلسطينية.

ولذلك، فإن أي محاولة لإعادة بناء غزة بعد هذه الحرب المدمرة من غير المرجح أن تنجح إذا لم تأخذ في الاعتبار الموقع الاستراتيجي للقطاع في المنطقة. ولا يمكن تحقيق نزع السلاح في هذا القطاع إلا من خلال رفع الحصار الكارثي وطرح رؤية إيجابية لتنميته الاقتصادية.

وبدلاً من محاولة عزل القطاع أو عزله سياسياً، يتعين على القوى الدولية أن تعمل معاً للسماح لغزة باستعادة دورها التاريخي باعتبارها واحة مزدهرة ومفترق طرق مزدهر، يربط البحر الأبيض المتوسط بشمال أفريقيا والمشرق. ويتعين على الولايات المتحدة وحلفائها أن يدركوا أن غزة سوف تحتاج إلى

أن يكون لها دور مركزي في أي حل دائم للنضال الفلسطيني.

في تناقض صارخ مع واقع الفقر الحالي، والنقص الشديد في المياه، والبؤس الإنساني الذي لا ينتهي، جرى الاحتفال بواحة غزة، أو وادي غزة، لعدة قرون بسبب خصوبة نباتاتها وبرودة ظلها. لكن قيمتها الاستراتيجية كانت على القدر نفسه من الأهمية، لأن غزة تربط مصر ببلاد الشام. ويعني موقعها المميز أن الأرض كانت محل نزاع منذ القرن السابع عشر قبل الميلاد، عندما غزا الهكسوس دلتا النيل من غزة، لكنهم هزموا وصدوا في وقت لاحق من جانب سلالة الفراعنة في طيبة.

في نهاية المطاف، اضطر الفراعنة إلى التخلي عن غزة لصالح شعوب البحر - المعروفين باسم الفلسطينيين - الذين أنشأوا في القرن الثاني عشر قبل الميلاد اتحاداً من خمس مدن ضمت غزة والمدن الإسرائيلية الحالية عسقلان وأشدود وعقرون وجات.

واستعرض الكاتب إطلالة تاريخية على تاريخ غزة في العصور القديمة والوسطى ووصولاً إلى التاريخ الحديث وكيف كانت المنطقة محور اهتمام المنافسين والقوى الاستعمارية في ذلك الوقت، مشيراً إلى قيمتها العسكرية والجغرافية والاستراتيجية.

ازدهرت غزة كمركز تجاري مهم ومركز ديني تحت حكم المماليك والعثمانيين بين فترة العصور الوسطى والقرن التاسع عشر. وكانت معروفة بالزراعة والتجارة الساحلية.

وقد وضع إنشاء الانتداب البريطاني على فلسطين وخطة تقسيم الأمم المتحدة غزة في قلب الصراع الإسرائيلي الفلسطيني. وأصبحت معقلاً للقومية الفلسطينية وموقعاً لمخيمات اللاجئين الرئيسة بعد حرب 1948 وإنشاء إسرائيل.

سيطرت مصر على قطاع غزة عام 1949 لكنها لم تفعل الكثير للسكان. واحتلت إسرائيل غزة عام 1967 ومرة أخرى عام 1956 وعززت التوترات بين الفصائل الفلسطينية. وأدت اتفاقات أوسلو إلى سيطرة السلطة الفلسطينية ثم سيطرة حماس الكاملة بعد انسحاب إسرائيل.

ودمر الحصار الإسرائيلي المستمر منذ عام 2007 اقتصاد غزة وبنيتها التحتية. وتسببت الحرب الأخيرة في موت ودمار واسع النطاق ولكنها أعادت غزة إلى طليعة جهود السلام بسبب مركزيتها في أي حل.

ويقول الكاتب إن إعادة تنمية غزة باعتبارها مركزاً تجارياً مزدهراً ورفع الحصار يمكن أن يساعد في تجديدها من السلاح وتعزيز السلام، كما هو الحال في دورها التاريخي. لكن تحقيق ذلك سيكون صعباً للغاية بعد الحرب ويتطلب تعاوناً دولياً. لكن لم تعد هناك حلول سهلة.

وقد تكون هذه الاستراتيجية هي السبيل الوحيد للخروج من دوامة القتل الحالية. كما كانت الحال طوال قرون، أصبحت غزة مرة أخرى في قلب حرب كبرى، ولكنها أصبحت أيضاً مفتاح السلام والازدهار في الشرق الأوسط.